يحاول السجلماسي الحديث عن اللغة بوصفها أداة خاصة بالنشاط الإنساني ، ويختلف هذا النشاط من حيث الهدف ، فهو يقوم بتأدية عملية التواصل ، كما يتميز بخاصية التشكيل الجمالي والفني للغة، لذى ميز السجلماسي بين ملكة البيان وصنعة البلاغة ، فالبيان قوة نفسية فاعلة واستعداد فطري يقوم على التلقائية والعفوية أما البلاغة فهي صنعة يتعلمها الإنسان كأي حرفة من الحرف ، لكن السجلماسي لم يعرف مصطلح الملكة بالبيان سوى مرة واحدة في كتابه، في حين أقترن عنده مصطلح العلم بالبيان أكثر من عشرين مرة.

ويفرق السجلماسي بين مصطلحي العلم والصناعة ، فالعلم هو الوعي النظري بالصفات الراسخة للموضوع، أما الصناعة هي العلم بكيفية العلم ، ويرى الدكتور جابر عصفور أن مفهوم الصناعة قد ينصرف إلى الجوانب العلمية المتعلقة بكمية العمل، بينما ينصرف مفهوم العلم إلى الأصول النظرية المتعلقة بإدراك الكليات وبعبارة أخرى : يرتبط مصطلح العلم بالإدراك والمعرفة الكلية التي تتصف بالوحدة والتعميم ، أما مصطلح الصناعة فيرتبط بالقواعد العلمية التي تترتب عن الإدراك الكلي".[1]

وإذا تجاوزنا تحديد مصطلحي (العلم والصناعة) ، نجد أن السجلماسي يهدف إلى تحديد مجالات الموضوع من نقط الائتلاف ، ونقط الاختلاف بين الاختصاصات ، مركزاً على البلاغة ؛ لأن موضوعها هو الأدب ، وخاصة الشعر والخطابة، لهذا" وجب في علم البيان من قبل عموم نظره للخطابة والشعر؛ إذا كان نظره في العبارة البلاغية إعطاء القوانين العامة للخطابة والشعر من حيث العبارة البلاغية فقط، ألا يلتفت فيه إلى ما يخص صناعة منهما إلا بعد القول فيما يعم منهما أكثر من صنف واحد، إذا كان ذلك هو التعليم المنتظم".[2]

يحاول السجلماسي أن يضع تأسيساً لعلم صناعة الشعر في إطار دائرة أوسع هي صناعة البلاغة؛ فيفرق بين العلم النظري الذي سماه النقاد القدماء (الصنعة)،ولكن المصطلحين- رغم هذا التقابل – يتداخلان- "غير مرة في الاستخدام القديم، فيطلق العلم على الإدراك ، كما يوصف الاقتدار على استعمال الموضوعات بأنه علم وصناعة ، أو صنعة"[3] ، إلا أن السجلماسي زاوج بين المصطلحين، فقرر أن العملية الشعرية يجب أن تخضع لتلقائية المخيلة وعفويتها، فضلاً عن الدربة والمران، من هنا أخذ السجلماسي على الشاعر ابن خلاصة الأستاذ إكثاره من ألوان البديع ، يقول:" وكان هذا الشاعر يكثر – كما قيل – من هذا الصنف من أصناف البديع حتى يجاوز فيه الحد ولا يكاد يخلى بيت منه جاءه عفواً سهلاً أو مستكرهاً متكلفاً ، وذلك بخلاف ما يشترط

---

[1]- ينظر : مفهوم الشعر في التراث النقدي ، الطبعة الثانية ،دار التنوير للطباعة والنشر ،بيروت.1982ص: 128/127.

[2]- المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع : ص/218-219.

[3]- ينظر الدكتور ،جابر عصفور : مفهوم الشعر في التراث النقدي :ص/130.

فيه(...) وشرط هذا النوع وقسيمه معاً السهولة وقلة التكلف ، لان ما ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة له ولذلك عيب نوع تجنيس التركيب لظهور الكلفة فيه وعد من أبواب الفراغ ، ولول أتفق أن يرد منه شيء خال من التكلف لكان طرفة رائقة وتحفة أنيقة فائقة (...).[1]

فالشاعر كلما أبتعد عن طبعه في شعره ، جاء شعره بارداً ممجوجاً ، لانه يفتقد صدق التجربة الشعرية التي تعد المنحى الرئيسي في الإبداع ؛ يضاف إلى ذلك الدور الذي تلعبه الدربة في عملية الإبداع والخلق؛ لأنه يجب على الشاعر الجيد أن يبتعد عن التكلف ، وأن يعتني بكل لفظة ينسبها إلى قصيدته ، وبكل جملة يركبها ، وبكل تعبير يستخدمه ، لذا وجب عليه العودة إلى قصيدته ، فيتعهدها بالتجويد والتنقيح.

وإذا قارنا بين حازم و السجلماسي، نجد حازماً رفض التكلف ، وشدد النكير على الشعراء المتكلفين، وزواج بين الطبع والصنعة في عملية الإبداع ، ثم يعود إلى مرجعيته، فينهل منها، فتكون قصيدته طافحة بفيض البيان، وسحر البلاغة ،وانسجام الإيقاع، أما السجلماسي ، فلم يتشدد في مسألة التكلف، وإنما مسها مساً خفيفا ، فلم يهاجم الشعراء، ولم يسفه رأيهم في القضية ، وإنما أقتصر على الدعوة في إظهار عيوب الشعر الذي يتخذ التكلف مذهباً له.

وبذلك رأى السجلماسي ان الشاعر الحق لا يستطيع الاستغناء عنهما في عملية الإبداع ، لأنه يعتمد - أولاً– على طبعه وموهبته ، ثم يتنقل – بعد ذلك – الاعتماد على الجهد الواعي المبذول قصد اختيار الألفاظ والمعاني والصور ، وهذه العملية تتأتى من القراءة والتثقيف والمراس ، ومن هنا يجب على الشاعر أن يبتعد عن التكلف المقيت ، لأنه لا ينتج سوى نظم مثقل بظلال كثيفة من الزينة والزخرفة.

في الآخر نعترف للنقاد المغاربة مشاركتهم العلمية والثقافية في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فكانت لهم إبداعات أدبية واسعة وثقافة علمية راسخة ، وفي عهدهم ازدهر الادب ازدهار محسوساً ، حيث تأنق الكتاب في إنشائهم شأن المشارقة ، ومالوا إلى السجع والتزيين والتنميق ، ولكن على غير إفساد في الذوق ومن دون أن تتغلب الصناعة على الفن ، وإزدهر النقاد وتوسعت مراميه وأهدافه وغاياته ، وأصبح للمغرب العربي نقاده الذين درسوا النص الأدبي وأبدعوا فيه أراء متميزة كما وقفوا عند اهم القضايا النقدية السائدة في عصرهم كقضية الطبع والصنعة ، والتي دار حولها نقاش كبير في المدونة التراثية النقدية.

[1] - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع :ص/505.

تعد قضية اللفظ من أهم القضايا النقدية القديمة التي دار حولها الخلاف وكثرة فيها الآراء فمحور ذلك كله حول أيهما مصدر الإبداع الجيد في الشعر اللفظ ام المعنى؟.

فالمتتبع لذلك يجد ان قضية اللفظ والمعنى قد انبثقت عن الصراع القائم بين أنصار الشعر القديم ، والشعر الحديث ، فأنصار القديم ، من علماء اللغة ورواة الأدب اتخذوا اللفظ مقياساً لجودة الشعر ، فكلما قرب هذا اللفظ من البداوة ، وكلما كان لحنا يملأ الفم ، ويهر السمع كان الشعر جيداً ، وأما أنصار الجديد من الشعراء والأدباء وبعض العلماء والنقاد ، فقد جعلوا من جودة المعنى والتعميق فيه وملاءمته لبيئة الشاعر وعصره وروحه وثقافته المزية الأولى للشاعر ، ثم جعلوا بعد ذلك ألفاظ الشاعر وعباراته.

وقد أستمر الخلاف حول اللفظ والمعنى بين النقاد عبر العصور مثيراً جدلاً كبيرا، فلم يوفقوا أو يهتدوا إلى رأي محدد!؟، فتفرقت بهم الآراء والأذواق وانقسموا إلى ثلاث طبقات:

أ- طبقة تنتصر إلى اللفظ دون المعنى .

ب- طبقة تنتصر إلى المعنى دون اللفظ .

ج- وطبقة وقفت موقف الاعتدال والتوفيق.

1- أما أنصار اللفظ: فهم من الأدباء النقاد، وكانوا يحتكمون في موبوهم إلى المقياس الجمالي، فمالوا إلى الألفاظ، ومن جهة سلامة اللغة، وصحة التركيب، والسبك ، وجمال الأسلوب وما ينطوي تحته من طلاوة.

ويعد الجاحظ من بين الذين نادوا بمذهب الصناعة والإفتنان في الصياغة ، والتزويق اللغي ، وهو صاحب فكرة المعاني مطروحة في الطريق ، وربما يعود هذا إلى أن الرجل قد تأثر بالفكر الإعتزالي الذي يعتمد على الجدال المنطقي ، وتكون الألفاظ سلاحاً مهما في مثل هذه المناقشات.

نفى الجاحظ الحسن في كلامه عن المعنى، ويتضح ذلك من خلال بيتين من الشعر سمعهما:..."وأنا قد سمعت عمرو وقد بلغ من إستحابته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة ، وان كلف رجلاً حتى أصفر دواة وقرطاساً حتى كتبها له وانا أزعم ام صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبداً ، ولا ان أدخل في بعض القليل لزعمت أن أبيه أشعر منه ، وهما قوله"[1]: